الفصل الخامس

الزعيمُ ماوْ يَبيعُ الحساءَ

تلتف الشـوارع الضيقة والحارات في سوق شـنغهاي لبيع حيوانات البيوت الأليفة في إحدى المناطق القديمة الباقية المجاورة لحديقة الشـعب حول دكاكين صغيـرة لاحصر لها، لكل منهـا موضعه في مملكة الحيوان. بعضها يبيع الطيور المُغَـرِّدَة وأقفـاص الخيزران، وأخرى تبيـع الجداجد (صَرَّار الليـل) المقاتلة أو السـلاحف. ويبيع رجال على قارعة الطريق، السـمك الذهبي المنتفخ، والسمك المقاتل السـيامي ياقوتي اللون، وأنواع أخرى من السـمك الاسـتوائي المرصع. ويسـبح السـمك الصغير في أكياس منقطة منفوخة من البلاستيك تجعله يبدو أكبر عشر مرات من حجمه الطبيعي وتضاعف فيه لون قوس قزح.

وترى المتسـوقين هنا مثل أبنـاء مدن الصين المحترفين مفعمين بالنشـاط والحيوية – يسـميهم المتسوقون الأمريكيون تشبزchuppies – يصعدون على السـلالم المتحركة في المراكز التجارية المتألقة المؤلفة من اثني عشـر دوراً، ولا تبعد أكثر من بضعة أبنية. هذه ليسـت سـوقاً للبضاعة الراقية، وإنما معظم ما يباع هنا بضاعة رخيصة الثمن ممتعة. ويتباهى أصحاب حيوانات البيوت الأليفة حيثما كانوا بحيواناتهم، وهذه الدكاكين تقدم لهم مجموعة منوعة. فالطيور ذات الريش الجميل، والأصوات العذبة، أو الطيور النادرة تعطي بائعيها اعتباراً جيداً. وللأقفاص أيضاً نغمتها الخاصة. فالأقفاص المطوقة بالخيزران في أسـفلها قد تكون بسيطة أو محفورة، مفصلة في تصميمها أو متروكة على حالتها الطبيعية. أما الأوعيـة الخزفية الصغيرة التي تحمل البذور والماء تأتي بأنواع شـتى، بين الحجريـة والخزفيـة. وتجد أكثرها صقلاً تلك التي لها نهائيات خشـبية أنيقة

تربط القفص بخطاف تعليق معدني في أعلاه. وتصنع نهائيات الأقفاص الأرقى من قطع خشــبية نادرة تحفر عليها مشاهد ريفية بحجم طابع بريد. وقد تكلف النهائيات قروشاً أو مئات الدولارات، كتلك التي توضع في علب زجاجية مقفلة. وإن الأناة والود هما الســمة العامة للتجارة في السوق. حيث يشترك المتسوقون والعمال مع المخلوقات المتاجر بها في طاولات الدكاكين التي تقدم «نودلز» (وهي خدمة شراء ساذجة) في الهواء الطلق.

وإن سوق حيوانات البيوت الأليفة هو فجوة داخل المدينة يعيش الريف فيها. وإلى جانب العمل في الدكاكين وعلى الدراجات يزرع بعض الباعة أنفسهم حيث يســتطيعون. فيقف بعضهم أمام مداخل الدكاكــين يبيعون القوازب (الحيوانات البرمائية) والحشــرات المقاتلة، وقد وضعوا أمامهم أكياساً كبيرة. وهذا السوق هو أحد الأماكن في وســط شــنغهاي التي يمكن أن ترى فيها صينيين ما زالوا يرتدون لباس ماو، وثياباً عســكرية مهلهلة. ربمــا لأن الأعمال التي يقومون بها قذرة جداً لاتتيح لهم ارتداء ثياب أفضل، أو أن لابسيها أفقر من أن يرتدوا ثياباً أفضل منها.

إن أســواق حيوانات البيــوت الأليفة في الصين أماكن يســتطيع المرء فيها أن يبــدأ العمل مــن الأرض، والأرض في الصين الجديدة هي كل ما يملكه بعض الناس، مثل أبناء أُسْرَة لي عندما وصلوا إلى شنغهاي. غير أن المهاجرين يحملون الأرض معهم أحياناً، مثل امرأتين تعلو خديهما حمرة تحملان أطباقاً صغيرة من الخيــزران مليئة بالخث (قطــع من النبات متحللة ونصــف متفحمة)، تتأملان نظــرات العابرين من أهل المدينة، كأنهمــا تخجلان من أنهما قد خرجتا لتوهما من ماضي الصين الســحيق. إن هاتين الامرأتــين تبيعان الديدان، تجمعانها من التربة التي تحملانها على أطباقهما واحدة فواحدة، تستخلصان من الزبائن قطع النقود الصينية الصغيرة التي يحملونها في جيوبهم.

قالت امرأة غريبة تســير في الســوق: «هل تتصور ذلّ ذلك العمل؟ إنه عمل وضيــع لاأرى ثمة عمل أوضع منه، إنهما تبيعان الديدان، تبيعان الديدان للطيور

المدللة عند الناس وحشراتهم». وتشير إلى فقر المرأتين ونحولهما، وقصر قامتهما، ونقص سعراتهما الحرارية، وتقول: إن شنغهاي مليئة بمثلهن.

ويسهل التمييز في شوارع المدينة بين الريفيين الفقراء وأهل المدينة الأحسن حالاً، . أو هكذا يبدو للصينيين الذين يلتقطون المؤشرات فوراً ويطلقون حكمهم بناء على البنية، والبَشَرة، واللهجة، ونمط اللباس، وتوقُّع التعالي والسخرية والهزء خلالها.

وقد يحلو للمرء أن يرى الجانب اللامع من المدينة كطليعة للتغيير في الصين. فإن المدينة الكبيرة هي المكان الذي يوظف فيه المال الوفير. وثَمَّة أماكن تتباهى بإظهار جانب مهم من جوانب الثورة الحالية كأسواق حيوانات البيوت الأليفة في شنغهاي، حيث يدخل الريفُ المدينةَ، وسوق الديدان يُنبئ أيضاً بتوسع أعمال باوستيل Baosteel works، ومصنع جنرال موتورز GM الجديد في شنغهاي، أو طفرة البُنيان في المدينة. وقد تبدو النساء اللاتي يبعن الديدان في الحضيض، غير أن وجودهن في شنغهاي يذكر بأن طفرة الاقتصاد الجديد قد انطلقت من الريف، وأن القوة الدافعة لسكان الصين الريفيين، الذين كانوا جماعة فتفرقوا وانطلقوا في تحركهم، هي التي تغير الصين والعالم.

كان بيع الديدان بقصد الربح في أسواق حيوانات البيوت الأليفة من رابع المستحيلات قبل الإصلاح. فالإيديولوجية الشيوعية عن الطبيعة، والعمل، والطبقات ما كانت لترضى بذلك، وكأنما خلقت الطبيعة لِتُقْهَر، والعمال لخدمة الدولة. فكانت الأعمال التجارية التي شَجَّعت وجودَ طبقة تنعمُ بالراحة تُهَدِّد الثورة بِخَطَر.

فقد أعطى الشيوعيون أنفُسَهم في عهد ماو مهمة إعادة تشكيل أرض الصين تشكيلاً جذرياً. واعتمدوا في ذلك على الإرادة – التي تذكيها حملات إيديولوجية – وقوة عمل الشعب في تنفيذها. وليس ولع الحزب بمشروعات أعمال عامة عملاقة بِخافٍ على أحد.

إن الذي لا يعرفه كثيرون هو همجية تصميم الشعب الصيني في رفضه للعالم الطبيعـــي. وقد أمضت الباحثة الأمريكية جُدِث شبيرو Judith Shapiro ثلاث سنوات في الصين تتحدث مع الناس المعنيين بالحملات الحكومية الموجهة لإعادة تنظيم الطبيعة. وكانت إحدى الحملات في أواخر خمســينيات القرن العشــرين وأوائل ســتينياته تنادي بإفناء المخلوقــات المؤذية الأربعة، فوَجَّهَت الصينيين إلى إفناء جميع الفئران، والذباب، والبعوض، والعصفور الدوري. وقد عَبّأ ماو البلادَ كلَّهــا إلــى الحملة، وجَرَّ إليها جَيْشَــها الوطني من صغــار الطلبة. وقامت قرى بأكملها بالتفتيش عن أعشــاش العصافير وبيوضهــا وتدميرها، في هجوم عام مُنَسَّــق على العصافير. وسُــيِّرَت دوريات في الحقول تضــرب القدور والمقالي لتطــرد العصافيــر. وعندما كانت العصافير تطير هاربــة إلى ملاذ بعيد، كانت جيوش مكافحة الحشــرات المؤذية تقف لها بالمرصاد، فتضرب القدور والطبول ثانيــة، لتحرم الطيور أي ملجأ تحط عليه. واختفى العصفور الدوري من الصين أو كاد، وطيور أخرى أيضاً. واختفى معها خط الدفاع الطبيعي الأول ضد الجراد وغيره من الحشرات الضارة بالحقول.

كانــت تلــك الحملة واحدة من عــدة حملات أدت ســنة 1960م إلى المجاعة الكبــرى في الصــين، وأدت إلى الانهيار الزراعي الذي ســبب مــوت أكثر من 30 مليون شــخص، في أكبر كارثة جَرَّها الإنســان على نفســه فــي التاريخ. فاضطر جيش من عمال الإبادة، مزودين بمبيدات كيميائية لمكافحة الحشرات والأرض إلى معالجة غزو الحشــرات الذي تبع ذلك. كان الاندفاع إلى تخليص حياة الصين من الطيور والحشرات ضارياً حتى شعر فَنّانو الصين التقليديون، الذين عاشوا عمرَهُم يرسمون الطيور والحشرات، بِرُعْبٍ حالَ بينهم وبين الإبداع أو عرض أعمالهم.

وارتبطت تربية حيوانات البيوت الأليفة بالطبقة الحاكمة و«أســلوب حياتها المتفســخ». فتلعن الإيديولوجية الرســمية الصينية الذيــن لديهم خدم، أو وقت فراغ، أو حيوانات بيوت أليفة أنها تعاديهم وتبرر العنف ضدهم. أما اليوم، فَيعد

مَـلءُ وقت فـراغ الناس عملاً مربحاً وجيداً كأي عمل آخـر. وبرغم أن الدوافع الرافضة لاقتناء حيوانات البيوت الأليفة مازالت قوية، غير أن قوتها ليست كافية لوقـف تجارة حيوانات البيوت الأليفة أو إغلاق أسـواقها، فهي التي تؤمن مورد رزق لأسـر المزارعين الذين صاروا يعتمدون على تلك التجارة بدل ربط حياتهم بما يزرعونه من حبوب أو بمشروعات الحكومة.

وهكـذا نجد باعة الديدان الوضيعين يُجَسِّـدون كل تغيير كبير في الريف، وكذلك التنقل بحثاً عن فرص مهما صغرت، وإشباع رغبات الصين من المتع التي كانت ممنوعة، بدخول مجالات جديدة أُلغيت من حياتهم منذ زمن غير بعيد.

طعامٌ جَيِّد

إن أسـواق حيوانات البيوت الأليفة هي أحد المواقع التي يدخل الريف فيها إلى المدينة. وثمَّة مزج واسع آخر يجري حول مائدة العشاء. فالإسراف في الطعام واختياره يتناقض تناقضاً شديداً مع عقود الحرمان التي جاءت بعد سنة 1949م فقد أحدث إصلاح الأراضي، في أوائل سـنوات الحكم الشـيوعي، تحسـينات مهمـة عند معظم الجماهير الريفية. غير أن إنتاج الغذاء أُلْحِقَ بأهداف النظام الصناعية. وتَكَيَّف المزارعون الصينيون مع هدف ماو، خلال فترة القفزة العظمى إلى الأمـام، في أواخر سـنة 1950م لتصبح الصين من كبـار منتجي الفولاذ، وهو مشـروع وطني آخر أسهم في المجاعة الكبرى. وشُجِّع الفلاحون على هَجْر الحقول إلى إنتاج الفولاذ. فَبَنَوا «أفراناً في الساحات الخلفية» حيثما استطاعوا، وجمعـوا كل ما تقتني الأسـرة مـن أدوات معدنية وأدوات مطبـخ لِصَهْرِها في المصانع التي أقاموها خلف بيوتهم.

كان عليهم تسليم فولاذهم المُنْصَهِر إلى الدولة لتحقيق هدف ماو بالتفوق في إنتاج الفولاذ على بريطانية العظمى، التي ما زالت رمزاً قوياً للهيمنة الاستعمارية والتصنيع الرأسـمالي. وكانت النتيجة أن ذهبت ثروات الأُسَـر الريفيَّة الصغيرة

هباءً منثوراً. فقد كان الفولاذ الذي صنعوه في أفرانهم خلف بيوتهم مجرد كرات معدنية لا قيمة لها، لا تصلح لصنع أدوات بسيطة. وتقَهْقَرَ السواد الأعظم من سكان ريف الصين بعد سنوات من سياسة سوء إدارة الصناعة والزراعة. فصار الشعب الصيني سنة 1979م أفقر مما كان في سنة 1950م، ويَئِسَ المزارعون.

كانت مكونات نظام الغذاء الرئيسة في الصين أيام الفقر زهيدة ورتيبة. ولم يعد الغذاء يلعب دوراً منعشاً خلال ثلاثين سنة تلت 1949م، مثلما كان من قبل. وبقي المزارعون الصينيون، بناء على توجيهات الدولة، يركزون على محاصيل الحبوب التي كان النظام الشيوعي يقيس نجاحه به. كانت الخضراوات قليلة في معظم الأحيان؛ ولم يكن عند الصينيين في حزام الحبوب الشمالي سوى الملفوف، والبطاطا، واللفت. كان الغذاء مقنناً تقنيناً صارماً. أما العمال (الكادحون) فقد كان غذاؤهم أكثر من وقودهم بقليل، وكان يصل إليهم عن طريق مواقع عملهم، يُتَصَدَّق به عليهم بمذكرات صغيرة تُقَدَّم إلى مستودعات تابعة للحكومة. وكان تناول وجبة طعام في الخارج حدثاً نادراً حتى بعد بدء التحرر الاقتصادي. فطعام مطاعم الصين شرٌّ لا بُدَّ منه غير شهي للمسافرين. كانت المطاعم أماكن قذرة لاتعرف الترتيب، تديرها شركات صغيرة تملكها الدولة، تقدم طعاماً مكوِّناته رخيصة، لاتجد فيه متعة.

غير أن الأمور قد تغَيَّرَت. فصار الطعام من أعظم المباهج في حياة المدن في الصين. حيث تجد في معظم مدن العالم المهمة أطباقاً من مطابخ بلاد بعيدة. (إلا المدن الإيطالية، التي لا ترضى عن طعامها بديلاً [وحقّ لها ذلك – الناشر]). ويرشدك موظفو فنادق مدن الصين الكبيرة إلى الطعام الفرنسي، والإيطالي، والتايلندي، والمغربي، وعلى جعة إرلندة، وبتزا شيكاغو. فصارت مطاعم الهَمْبُرجر، والدجاج الأمريكي، والقهوة مرغوبة في كل مكان وخاصة في المدن الآسيوية.

وربما تجد في الصين وفرة من أنواع الطعام تضاهي ما في العالم كله، وهذا تغيير ليس طبيعياً من اهتمامات البلاد المتجددة. فقد عاد الطعام والأسرة

ليحتــلا موقع الصدارة في حياة الصين الاجتماعيــة والثقافية. وهناك من يُعِدُّ لوليمة، في كلَّ جمع، وكل طقس، وكل اجتماع عمل.

وتُشــير آن فــيك Ann Veeck من جامعة وِسْــتِرْن متْشجن Western Michigan إلى أن كلمة رِنكو Renkou الصينية التي تعني «الســكان» تُتَرْجَم حرفياً إلى «أفواه الشــعب». لقد عاشــت فيك Veeck في ننجنْج Nanjing، عاصمة مقاطعة جيانجسو Jiangsu، في منتصف التسـعينيات، حيث دَرَسَت تَغَيُّر حيــاة مئات بائعي الطعام بعد الإصلاح الاقتصادي. وتقول فيك كان بائعو الطعام أول موجة من المقاولين المدينيين. كان الذين غامروا بدخول السوق الحرة في البداية، بعد ســني الدعاية المضادة للرأســمالية، هم أولئك الذين ليس ثَمَّة ما يخســرونه. وقد أحجم معظم الصينيين عن البدء بأعمال تجارية، وإن كانت صغيرة. لقد شــعروا أن رياح التَغيير تَتَقَلَّب كثيراً طيلة ثلاثين ســنة من الحكم، فحاذروا أن تَسِمَهُم أي محاولة لفتح عمل خاص بالعداء للثورة أو الإجرام. وكان من أوائل الذين دخلوا الســوق أولئك الذين لم يَجِدوا لأنفسهم مكاناً في النظام الذي تديره الدولة، وكان منهم أولئك الذين أُطلِقوا مؤخراً من ســجنهم، ولم يكن لهم عمل آخر. وأدركت فيك أن لا عجب إذن أن لا يثق المتســوقون ابتداءً بِباعَة القطاع الخاص.

وتوجد اليوم أســواق لجميع أنواع الطعام، من أكشــاك المزارعين والأســواق الكبيرة على مقربة من الجميع في ننجنج والمدن الأُخرى في الصين كلها. ووجدت فيك أن نصف سكان المدن يعيشون على بعد بضع مئات من الأمتار من الأسواق.

نودلز (شرائط المعكرونة) في الهواء

تبدو شوارع رودُنج Rudong في مقاطعة جيانجسو في التاسعة والنصف مســاء أهدأ من شــوارع مدن الصين الأكبــر. فَرودُنج، التي يبلغ عدد ســكانها حوالي 1ر5 مليون نسمة، هي من أصغر مدن الصين الكبيرة، وقد يدهشنا ذلك

لأنهـا تقع على تقاطع بحر الجنوب الأصفر South Yellow Sea ومصب نهر يانجتسYangtze. ولا بد أن تنشـط في السـنين القليلـة القادمة، فقد صار للمدينـة ميناء جديد سـيجلب حركة ملاحة دوليـة. وإن رودُنج، مثل أي مدينة صينية فيها قدر محتمل من الصناعة، تستقبل موجة هجرة مَن تَرَكَ المزارع.

ويخرج بعض هؤلاء المهاجرين الجدد ليلاً إلى أكشـاك صغيرة يبيعون فيها الطعام للذين يعملون في ورديات متأخرة. وهناك باعة من زِنْجيانج Xinjiang، المقاطعة المُسْـلِمَة الوَعِرة في أقصى شـمال غرب الصين. وتراهم أكثر شـبهاً بالكازخستانيين، جيرانهم في آسيا الوسطى، من شبههم الصينيين. وقد صارت رؤية المهاجرين الرجال من زِنْجيانج مشهداً مألوفاً في مدن الصين، حيث تراهم يبيعون الكباب المبهَّر من لحم الضأن المشـوي على نار مفتوحة، مشـكوك على أعواد (أسياخ) من الخيزران. وثَمَّة آخرون يبيعون الزلابية أو الكعك المحلى.

غير أن المكان الأكثر ازدحاماً في الشارع الرئيس في رودُنج هو كشك بسيط يبيع – شـرائح المعكرونة – نودلز حيث يعمل رجل وابنه المراهق على حَلَّة كبيرة يتصاعد منها بخار حساء لحم البقر. يعد إعداد النودلز على شوارع الصين نوع من الاستعراض الفني، والذي يُعِدُّه في رودُنج يتقن فنين يجذبان الناس. فيأخذ عجينة سـميكة ويضربهـا بالتناوب على النضد، ثم يسـحبها إلى ارتفاع ذراعه ويثنيها ليُحَضِّر، دون اسـتخدام أي سكين، حزمةً سـميكة من النودلز الدقيقة. وإن أراد الزبون نودلز بنكهة ألذ، فيحمل العجينة، ويرفعها عالياً فوق رأسه بيد، ويقطـع باليد الأخرى، التي تحمل موسـى حادة، العجـين بضربات خاطفة إلى نودلز عريضة. وتتساقط النودلز في الحساء، حيث تنتفخ وتطفو على السطح.

لقد قَدِمَ الرجلُ إلى رودُنج قبل سنتين من قرية زراعية داخلية في المقاطعة. ويقول: إن معظم شـبان قريته قد هجروها، ويقدر أن سبعة من كل عشرة منهم قـد ذهبوا إلـى المدينة. ويقول: إنه عندمـا قَدِمَ المدينةَ لم يكـن يعرف صناعة

النودلــز، فراقب عمل الآخرين وتعلمها. ويتســاءل إن كان ثمَّة من يصنع النودلز مثله في أمريكا، إن كان له أن يبحث عن عمل هناك.

ويزدحم الكشــك بأهــل الريف. فيصغي زوجان مــع ابنتهما وعمرها اثنتي عشرة سنة، إلى قصة صانع النودلز ويومئون برؤوسهم. لقد جاؤوا هم أيضاً من مزرعــة. كان الرجل يعمل في مصنع، ثم صار يصنع مع وزوجه توفو Tofu في البيت. وهي أكلة إقليمية عبارة عن قطع مرنة مســطحة بحجم كيس الشاي، قد تؤكل كما هي، أو تطبخ في المرق، أو تقلى بالزيت. تقول المرأة الثرثارة المرحة إن عملهما جيد ومربح، بينما يومئ زوجها برأسه ويبتسم لقولها.

وتقــول لقد بلغت ثروتهمــا اليوم ما لم يكن لهما أن يحلما به في طفولتهما. لقــد ذهبت الصين كلها حدوداً أبعد من أي شــيء كان لهما توقُّعَه من قبل. وقد جاءهما عَرْضٌ لعقد جديد لتزويد مدرســة بمؤن يوميــة. وصار يعمل عندهما اليوم ستة عشر موظفاً، قَدِموا جميعُهم من عمق الصين. ينام بعضهم في غرفة ملحقة بسُدَّة صغيرة يستعملونها مصنعاً. ويبدأ يومهم في الخامسة صباحاً.

تقول المرأة: إذا أردتَ أن ترى كيف يعيشون، فاذهب إلى سوق الطعام المجاورة في الخامسة والنصف صباحاً واسأل عنها باسمها المختصر زياوبنجXiaoping أي الزجاجــة الصغيرةLittle Bottle. وإن البناء المُعْتِم هو هيكل بناء بســيط سقفه معدني بحجم سوبر ماركِت أمريكي كبير. وتقف فيه «الزجاجة الصغيرة» قرب المركز، ويتألف موقعها من عدة صناديق بلاســتيكية كبيرة مليئة بقطع من توفو. وتراها تتكلم بينما تُلَبي هي وزوجها طلبات ثلاثة زبائن معاً، ويبيعان قبضة صغيرة من التوفو بيوانين اثنين، أي خمسة وعشرين سنتاً.

وتتــرك كشــكها لترافقك في جولة في الســوق. وعلى الرغــم من أننا في منتصف تشــرين الثاني/ نوفمبر، غير أن تنوع المكونات ونضارتها تجعل السوق تظاهــرة من أخضر لامع، وبرتقالي، وأحمر. وتجد تحت ســقف ســوق رودُنج

أصنافاً كثيرة مثل أي ســوق في مدينة نيويورك. حيث تمتلئ أقســام من السوق بالســمك المتلوي ونتاج البحر، ودجاج يقرقر وماعز ذُبِحَــت لِتَوّها ومُدِّدَت على طاولات بيضاء. وليس ثمَّة رائحة نَتن. (وليس الحال هكذا في الصيف). وتَصِل معظــم المحاصيل واللحم يومياً ويفرغ في المســاء. وكم يأتي إليها من بعد مئات الكيلومتــرات عن رودُنــج؟ فتقول: «الزجاجة الصغيرة»؟ 99 بالمئة منها. وكم يأتي من بعد خمسين كيلومتر؟ خمسون بالمئة. ومن رودُنــج نفسها؟ ربما الثلث.

قارن ذلك بأي ســوبر ماركِت أمريكي أو أُوروبــي، حيث تأتيه بضاعته من جميــع بقــاع الأرض، فالفلفل من هولندا، والأزهار من التشــيلي، ولحم الضأن مــن نيوزيلندة، والفاكهة من متشجان، وكاليفورنيــا، وإسبانيا، وبناما. لقد قَنَّنَ باقي العالم إنتاجه وصار يأكل طعاماً مُثَلَّجاً. وعندما اســترجع مزارعوا الصين حــق الإنتاج كانوا ملتصقين بقطع صغيرة مــن الأرض. غير أن رقعهم الصغيرة كانت مليئة بمحاصيل عديدة جيدة تَشُــدُّ أنواعُها اهتمام زبائنهم المحليين. وأما المزارعــون الذين يعيشــون على قطع صغيرة جداً مــن الأرض – ومعظمهم كان كذلك – فكانت محاصيلهم الجيدة لاتَلْبَثُ أن تنفد.

مآدب مُتَنَقِّلَة

وهناك الطعام، وهو نظرة جديــدة إلى التاريخ في الصين اليوم. فإذا تَلَفَتَّ يُمْنَةً أو يُسْــرَة في أي شــارع في الصين اليوم، ترى أنَّ عودة المطابخ إليها تكفي لتشدَّ الناسَ إلى طريق رأسمالي. فكثرة أنواع الطعام يعني في الصين الشيوعية أكثر مما يعنيه في أي مكان آخر في العالم. ففي غياب انفتاح حق التعبيرالحقيقي في الصحافة، والأدب، والفنون، يبقى الطعام الملاذ الوحيد الذي يجد فيه صينيو البر الرئيس تعبيراً قوياً عــن ثقافتهم. وبخلاف الأعمال التي تقدم على الورق، أو القماش، أو الشاشة، فإن الحكومة لا تخشى أن يخفي الطهاة رسالة توجيهية في طبق جديد من الـجمبري (القريدس) أو في قِدْرٍ يُطْهى فيه البط. إن الطعام في الصين هو الحرفة الأكثر توهجاً والأصعب محاكاة.

أمــا الآن، وبعد أن صار الناس يتنقلون، أصبحت مآدب الصين تتنقل أيضاً، فــإن المطاعم الإقليمية تنقل طعامها من منطقة إلــى أخرى تلبي رغبات البلاد بأذواق جديدة. ويُجَنِّد مُنتجو الطعام الطهاةَ من جميع أطراف الصين. لقد جعل التنافــسُ المدنَ الصينية من أفضل الأماكن التي تقــدم الطعام في العالم. فولع النــاس بالطعام يزداد، ويلهب الطلب الفــوري المُلِح على الطعام الصيني الرائج. والمطاعــم التي تلتقط الموجة تبلغ الذروة غالباً، فيزدحم أمامها الزبائن ســنة أو ســنتين ثم تَخْبو. وقد أدى طعام هانجزو Hangzhou اللذيذ – الغني باللحم الدَّسِم الطري ومخ العظام، ولحم البط المطبوخ على نار هادئة، وسمك الماء الحلو المقلــي بالصلصــة الحامضة – إلى جنون حقيقي انتشــرت فيه المطاعم في كل مــكان. فطعام هانجــزو – حيث طعام الأقاليم في أوجــه – نجده في المطاعم الكبيرة والغالية، بعضها له أدوار أرضية واسعة تضم أحواضاً للسمك تصلح لأن تكون متحفاً للمدينة، فيها مئات من أنواع الســمك وصيد البحر. وقد اكتســب طعام إقليم يونان Yunnan في جنوب الصين، خليط النكهات الاســتوائية في جنوب شــرق آســيا، فلقي رواجاً جديداً. وقد أســهم فانج ليجون Fang Li-jun أحد أشــهر نجوم الفــن الصيني المعاصر في الصــين بالاتجاه إلى مطاعم يونان الحديثة Yunnan في بناء برجي أنيق في بكين الشــرقية. حيث ترتدي المضيفات فيها الثياب التقليدية، ويمشين فوق أرض زجاجية عاكسة، وقد علقت على الجدران مجموعة من اللوحات لأشهر فناني البلاد.

ونجد في أحد المطاعم المنشورية في شنغهاي، المضيفة تغطي رأسها بخِمار حريــري عُلِّق به ذيل حصان طويل. وتتعثر المضيفات بأذيال أثوابهن الفضفاضة الموشــاة بالأصفر والذهبــي للإمبراطورة العجوز سيكســي Cixi، تعلوها ثياب ثقيلة للرأس تناســبها، مكسوة بِخَرَز سلالة أُســرة كنْج Qing، فالطعام هناك يأخذ الألباب. وإنك ترى الأزواج الشــباب ينتظرون أكثر من ســاعة ليجلســوا إلى طاولة خشــبية قُدَّت بخشــونة وتحيط بها أجذال شجر للجلوس عليها بدل

الكراسي. فَصُيِّرَ ملكيو مانشـــو الذين كانوا سُبَّة جَذّابين. فإن أحد أكثر الرموز سلبية لفلاحي الصين الشيوعية الإصلاحيين، هي الإمبراطورة العجوز، الرفيقة المتآمرة المهووســـة بالسلطة، التي بددت ثروة الصين وباعتها إلى الأجانب، تقدم الآن وجبات من عشرة أصناف للمراهقين الذين يحملون الهواتف الجوالة.

الكولونِل ماو

يعكس مشهد المطاعم في المدن التحول المدهش الذي يخضع له ماو تسي تُنج إذ يأخـــذ دور الكولونيل ســـاندِرْس Colonel Sanders. فادخل مطعماً ما في هُنان Hunan، تجد ماو ينظر مُحَدِّقاً بك من كل صَوب. لقد اعتاد الرأسماليون القدماء على وضع شـــخصياتهم السياسية العظيمة مثل باعة على رصيف. فقد أُطلِق اسم لينكولنLincoln على سيارات أمريكية فاخرة؛ ومراكز الإقراض يوم دفع الرواتب. كما تجود الملكة البريطانية بجلالتها واسمها فتعيرهما لبيع مظلات ومربيات. وإن أي قائد لديموقراطية غربية لابد له أن يُعْنَى بحماية التجارة. وقد استمد ماو شهرته من مقارعة عبيد الرأسمالية الخانعين، وليس من استعراضهم. وما زالت صورته، بســـبب هذا الدور، تُعرض في المواقع المدنية. وليس ثَمَّة شـــك في أن عظمة ماو تسيطر على ساحة تيانانمين Tiananmen في بـجين، مثلاً. ومازالـــت نُصُب ماو التذكاريـــة، كالمعروض في تشنجـــدو Chengdu، المدينة الكبرى في سيتشوان Sichuan تحرس الساحات العامة بين وقت وآخر. وليس ثمَّـــة من يخطئ التمييز بين ماو هذا وإصلاح الســـوق الحـــرة أو التجارة. وليس هناك من يعتقد أن ماو هذا سيقر بالحلف السري الذي أبرمه مزارعو زياوجانج Xiaogang.

ويبقـــى لماو في ذاكرة الصينيين الذين يعيشـــون أربعينيـــات عمرهم أو أكثر حضوراً لا يمكنهم الهروب منه. ويشـــكو الجيل الفتي في الصين اليوم من الجيل الأكبر تصَلُّبَه بسنوات العيش في ظل حكم ماو، حيث أدت إرادة الدولة الشرسة

وأثرها النافذ الذي يَصْعُبُ تقديره إلى زعزعة ثقة الناس وإثارة هواجسهم في البقاء – وهذه قاعدة عامة برغم أن الاستثناءات كثيرة. ويبتعد أصحاب العمل الشباب عن توظيف من تجاوزوا الأربعين، فالجيل الأكبر مصاب بجنون الرِّيْبَة. وهذا منعطف جديد يدعو إلى التشاؤم من الأفكار التي حَرَّضت الثورة الثقافية، التي تسمى الأربعة البالية، عندما حُضّ الناس على نبذ «الأفكار البالية»، و«الثقافة البالية»، و«التقاليد البالية»، و«العادات البالية».

وبرغم التكاليف النفسية لحكم ماو، فإن ماو مازال الأيقونة الأبقى في البلاد. فأي شخصية أفضل تأتي بها لبيع الحساء. تعد حديقة هنان في شنغهاي متحفاً كبيراً بهيجاً لماو. وتوجد هنا صورة للقائد السعيد يُشعل لفافة تبغ. وأخرى تمجِّد أيامَه قبل أن يصبح ممتلئ الخدين، عندما كان وسيماً كنجم نهار. وهنا يضطجع، وهناك يضحك لِطُرْفَة، أو ربما كانت له مَسَرَّاته الخاصة.

أما المطاعم، فتوحي الصور بأمر آخر: تذوقوا طعام ماو المفضل. ولابد في مطاعم هنان من تناول لحم الخنزير الدَّسم. فقد كان ماو يحبه كثيراً. وترحب تماثيل ماو في المطاعم الأخرى في هنان، بالقادمين للعشاء عند المدخل، كما تفعل الكولونيلات المصنوعة من زجاج ليفي في مطاعم كنتاكي KFC. ويلقى في مطاعم أخرى معاملة آندي وورهول Andy Warhol، على نحو مبالغ فيه وبألوان الفن الشعبي.

وتصبح صور القائد أكثر جرأة مع مرور الوقت، إذ تصبح الصورة بعيدة عن صاحبها ومضمون تاريخه مثل بعد صور القيصر عنه في قصر القياصرة. هل يجد الأنصار غرابة في أن يقوم الآن أكبر أعداء الرأسمالية بالدعاية للمطاعم الخاصة؟ ليس ثَمَّة غرابة أبداً. فماو من هنان، وأهلها فخورون به.

وماذا عن الصور التي تظهره أبله؟ ويأتي الجواب إنهم يحاولون أن يجعلوا مطاعمهم متميزة. ولا يعني ماو شيئاً في السوق إلا حيث يباع. فالعمل في الصين هو عمل.

دَعْوَى شُيُوعِيَّة مُصْطَنَعَة

إنَّ إعادة تَصْنيف مَاوْ للرأسمالية يَطْرَح السؤال الآتي: أين ماضي الصين الأكثر راديكاليــة؟ فقــد يتوقع المرء، في دُنيــا لجان تَقَصِّي الحقائــق ونُصُب ذكرى الإبادة الجماعية، أن تُوضَعَ أقسى ســنوات الحكم الشيوعي تحت التَمْحيص الشديد. وقد أنْتَجَت مذكرات كُتَّاب الصين في المنفى أدباً، لعلَّه أكثرُ آداب أواخر القرن العشــرين إثــارة. وإن بعــض الكتب المَحَلِيَّة، إن هي سُــرِدَت بِلُغَة مُلَطَّفة، تَجْتــاز الرَّقابة. وقد تضمنت رواية يُو هْوَا Yu Hua، لكي تعيش To Live، التي صَدَرَت ســنة 1994م قِصَّةً عنيفة مُؤَثِّرَة عن مُقامرٍ سِــكِّير ثَرِي خَسِرَ كلَّ ما عِنْدَه قبل الثورة ثم وَقَعَ أَسيرَ التغييرات التي أَحْدَثَتْها الحرب وسِنِيّ الهندَسَة الاشتراكيَّة. ومازال الفِلم الذي يُمَثِّل القِصَّة، وقد أُنتج سنة 1994م، ممنوعاً في الصين.

ويروي شيوخُ الصين نِضالَهُم خلال القرن بشيءٍ مِنَ اللُّطف في وقت الفراغ وعند تناول بعض الشاي أو الجعة. فتَرَاهُم يَسعَدون عندما يجدون أُذُناً صاغية. فإذا بدأوا بالكلام، وتَحلَّق حَوْلَهُم الأصدقاء، يومئون برؤوســهم إمعاناً بإدراكهم مَصيــرَ بَعْضِهِم بعضاً، والشــعارات التي عاشــوا في ظِلِّهــا، والأصدقاء الذين أُحَبُّوهُم وفَقَدوهُم، والحماس الذي مَلَك عليهم أنْفُسَهُم. فَتَجِدهم يَتَحَسَّرون على ما فقدوا، يوم كانت أهمية عمال تنظيف الطرقات وصُنَّاع الأَدوات تعادل أَهميَّة الأطباء وأســاتذة الجامعات، وربما أَهَم. يوم كانت المُلكية لا تعني لهم شيئاً حتى لم يكن ثمَّة جرائم، ويوم كان يُعادُ أصغرُ شيءٍ يُفْقَد. فَتَتْهال القصص والعواطف، لأنها لم تُســمع من قَبْل أو لأنها مشــتركة ومفهومة حتى إنها لم تكن بحاجة لأن تُقال، على الأقل بين أولئك الذين عاشوا أَسوأَ الأيام.

ولا يعرف طلاب الجامعة من تاريخ أهلهم ســوى نَزْرٍ يَسيرٍ مُبْهَم. وقد يكون ذلــك محض صدفة وقد يكون عن قَصْد. والحقيقــة الوَحيدةَ التي تُدهِش أكثر عن تحول الصين هي أنها اســتطاعت أن تدفن الأحقــاد والثارات الدموية التي ربما كانت سَــتُهْلِكُها. ويتعامل الناس في كل يوم، في كل بلدة أو قرية، مع الذين

أهانوهم أو عاملوهم أو عاملوا أُسَــرَهُم بوحشــية، أو مع أولاد الذين عاملوهم معاملة قاسية موجعة. غير أن الصينيين عامّة يتطلعون إلى المستقبل. ويتطلعون إلــى ما يمكــن أن تكون عليه بلادهــم، وإلى ارتقائهم مع السَّــعْد الجامح الذي يَبْتَسِــم للصين. كان الماضي حَسَناً، وكان سيئاً، كان نظريَّة، وكان جنوناً، لم يُفْلِح، فتجاوزوه. فآمالهم حَيَّة.

رُبما يَوَدُّ الحزب الشيوعي لو يُلقي فَشَلَه في سَلَّة مُهْمَلات التاريخ. غير أنهم يذهبون، عوضاً عن ذلك، إلى سـلة البيــع. فثمَّة بقايا صناعات كاملة مما تبقى من حطام العهد الشــيوعي الصيني الغابر تُعدُّ للبيع. فالفنادق الراقية، وأسواق الســلع الأثرية، ومصائد السياح، تحوي كثيراً منها. وكثير منها حقيقي، كالأكوام العالية من مئات الكتب الحمراء الصغيرة، والمجلدات التي انْكَبَّ الصينيون عليها زمناً طويلاً في «الفحص الذاتي،» يحاولون تَذَكُّر، أو تَكَهُن الطريقة المثلى لخدمة ماو والثورة.

فالكتــب في كل مكان. وهناك في الأســواق كثير من تلــك الكتب الحمراء الصغيرة، حتى إنك تستطيع بناء قصرٍ منها. وإن وراء كل كتاب أحدٌ، أو مؤسَّسة حكومية طرحته، لِيُباع الكتابُ مِنها بجزء من عشــرة ســنتات أو عشرين سنتاً. وليس بِمُستَغرب أن يَطرَحَ أهل الريف هذه الجبال من الكتب، فيجمعها مهاجرو الريــف الذين يديرون شــبكات اتصالات بين القرى الصغيرة ليجدوا شــيئاً من ماضي الصين يستطيعون بيعه في المدن.

وتوجد بالوفرة ذاتها كتب تعليمية مصورة، وهي أكثر تشــويقاً، بتنوعها، من مجلــدات ماو المنبوذة. إن هــذه الكتب الصغيرة، بصفحاتهــا القليلة المقتضبة، لا تلائــم الكتب الجريئة المصورة الجديدة الســميكة التي تباع في أكشــاك بيع الصحــف. فالكتب القديمة تفــوح منها رائحة العَفن والعــث حتى تجد قلة من المتســوقين يقدمون على تَصَفُّحِهــا. غير أنها تحظى بإعجــاب الأجانب الذين

يعرفون قيمة الأشـياء التي ترجع إلى عهد سـريع الزوال، من الأنواع التي تعود إلى أيام «طفرة الولادات» baby-boom.*

فإذا فتحت أي كتاب، كيفما اتّفق، دون تعيين صفحة ما، تجد درساً طريفاً. فيخبرك أحدها عن صبي فرنسـي برز في كوميونـة باريس (لجان ثورية تدير المقاطعات) يحارب كمقاومي الثورات. ودرس آخر يخبرك عن صبي صيني فلاح يتمتع بموهبة تقليد أصوات الطيور. وبعد أن أبادَ أُسرَتَه أَصحابُ الأرض الأشرار والإمبرياليـون اليابانيون، انضم إلى الشـيوعيين في قتالهـم من أجل الصين، مستعملاً صفراته ورعشـات صوته ليحذر القوات سراً من أي تحرك للأعداء. وفي كتاب آخر، نشـر سنة 1973م، وهي السنة السـابعة للثورة الثقافية، يقرأ الأطفال عـن يتيمة الثلج، وهي الطفلة التي تاهت فـي عاصفة ثلجية فأنقذها رجل من مليشـيات الجيش الأحمر أثناء الحرب ضد الوطنيين. تنشأ الفتاة في كوميونـة، وتكبر لتصبح من أطباء الصين الحفاة. وعندما يظهر الجندي صدفة في حياتها من جديد، وقد غدا شيخاً أعمى، يأتي دورها لِتُنقِذَه.

إن أكثر الكتب المصورة– التي تخلى أصحابها عنها أكثر – هي كتب «كُمِكْس» الحارس الأحمر الصغير، التي تتحدث عن معارك الأطفال ضد أصحاب الأرض، واسـعي المعرفة والثقافة، وسـواهم مـن أعداء الثورة. ربما لم يسـتطِع الأولاد لَعِب دور سـوبرمان في أيام الصين القديمة، وإنما اسـتطاعوا أن يكونوا ثوريين راديكاليين. وقد هَدَتْهُم كتب القصص المصورة، «كُمِكْس»، إلى سـبيل ذلك. وهم أقرب الآن إلى الدَّهماء.

أما الدعاية بالملصقات فهي أمر شائع آخر في الأسواق. حيث يزداد الإقبال العالمي على شـراء الملصقات السياسية الصينية، ويخزن بائعو التحف كمية منها

* إنها فترة تقع بين سنة 1940 وسنة 1960 في الولايات المتحدة الأمريكية، شهدت طفرة في الولادات، وتُسَمّى baby-boom. (الناشر).

أيضاً. وقد لايشتريها الصينيون المحليون بَعْدُ، وإنما تجد الأجانب الذين يغوصون في الأكوام، يتفَحَّصون كلَّ عامل بالحديد مُتَبَسِّم، سواء أكان رجلاً أم امرأة مُسْتَرجِلَة، أو مزارعاً يجدُّ في السير، وتجد صورة مهيبة لماو، فيجمع المشهد تناقضات الراديكالية، والعاطفة، والذوق الفني، والذوق الرديء.

وتجدهم يحاولون التمييز بين الملصقات الحقيقية الأصلية والصُّوَر المُسْتَنْسَخَة عنها. وبينما يعمل الصينيون على تنظيف المخازن التاريخية العليا مع ذكرياتهم منها تنشط المصانع المحلية أيضاً في عمل نسخ منها. فكل بائع يعرف أن أحد بيوت بيع القطع الأثرية بالمزاد - سوذِبي Sotheby - قد باع في أيار/مايو 2001م ملصق أيها الأمريكي عد إلى بلادك Yankee Go Home، الذي يرجع تاريخه إلى ثلاثين سنة خَلَت، بمبلغ قدره 575 دولاراً. وقد بيع في مزاد سوذِبي من بين 150 قطعة جمعت من مُقْتَنَيات خَلَّفَتْها الثورة الثقافية.

وتفيض الأسواق الآن بنسخ مُقَلَّدَة عن أشياء جديرة بأن تُذْكَر عن ماو، وكُلَّما ازدادت تلك الأشياء غرابة، زادت الرغبة فيها أكثر. ولعلك تتخَيَّل الحوائج الشخصية لكل من مستر بينَت Mr. Peanut، وإلفس Elvis، ومارلين Marilyn التي أُتيح لك أن تراها، وضَعْ ماو بدلاً عنها. وترى التماثيل النصفية الخزفية، والتماثيل الصغيرة، والأطباق، والكؤوس، وعلب القصدير تَموج في الأسواق، حسب تقديرات الباعة للرائج منها. وإذا تجَوَّلت في الأسواق مرَّةً في كل شهر تجد أصنافاً كاملة من مواد ماو تُعرَض على منضدات الباعة. قد تكون الميداليات الخزفية التي يبلغ طولها ثلاثة بوصات ضربة ناجحة في شهر ما. ثم تجدها معروضة بأطوال مختلفة في الشهر التالي.

ولحاجيات ماو الشخصية الحقيقية جمهور محلي يطلبها، ويستطيع الهواة جمع كميات هائلة منها. وقد نَشَرَت ميليسّا شريفت Melissa Schrift المتخصصة بعلم الأنثروبولجي في جامعة ماركويت Marquette في مِلووكي Milwaukee دراسةً عن تاريخ شارة ماو في سنة 2001م. كان وَضْعُ المجوهرات

أو إضافة أي لمســة إلى اللباس السائد في ستينيات القرن العشرين يعد انتهاكاً للمحظورات السياســية الصارمة. وكانت شارة ماو استثناءً. فكانت تنتج بأعداد هائلة تتجاوز البليون، وتزيد أشكالها المتنوعة على عشرة آلاف، حتى أثقل ضرب الشــارات الاقتصاد الصينــي فاضطر الحزب إلى وقف تلــك التجارة. وعندما بدأ الإصلاح الاقتصادي في عهد دينج زياو بنِج، جُمِعَت شــارات ماو وصهرت لاستخلاص المعادن التي صنعت منها.

أمــا الآن وبعــد أن أصبحت الصــين أغْنى، عاد الحنين إلى تلك الشــارات يَنْتاب شــيوخَ الصين وشُبّانها. فنشرت صحيفة الشَّعب اليومية، في آذار/ مارس 2000م، قصَّة مُزارع يقتني مجموعةً من ثلاثين ألف شــارة. جمعها ولاءً للقائد. تقول شــريفت Schrift «ثمَّــة أنواع مُتَدَنِّيَة منها أعتقــد أن الجيل الأصغر من الصينيين الذين يجمعون الشــارات القديمة يقدرونهــا، أما نحن الغربيين فإني أظن أن لدينا الاحتكار نفســه للمواقف الساخرة من الإرث الثقافي الشعبي. أما هواة الجمع الأكبر ســناً، فثمَّة خاصية مســهلة لجمع الصور من عهد ماو. إنها ســبيلهم للتعامل مع شيء في الماضي كان يشــكل أذى لا يصدق، وهو ما تُفَضِّل الحكومة نســيانه. وســوف يمضي زمن طويل جداً قبل أن ينشــأ متحف للثورة الثقافية في الصين».

كان صينيو ما وراء البحار، في هذه الأثناء، يُقَلِّبون النظر في فهم ماو سنين عديدة. كان شنغهاي تانج Shanghai Tang، مُصَمِّم أزياء من هونج كونج يبيع ملابس حريرية متقنة التفصيل على شــاكلة لباس مــاو، ألوانها صارخة، ويبيع ســاعات تحمل على وجهها صورة ماو ملوحــاً بيده. وفي منتصف عقد 1990م وقد وطَّدت فيفيان تام Vivian Tam عمَلها، وهي مصممة أزياء في نيويورك، بقمصان قطنية T-shirts تحمل صورة ماو بضفيرة شــعر مثل بنات المدارس. ولن يســمح بشيء مثل هذا في أسواق الصين، غير أن هواة جمع المواد الشباب، يتبعون الذوق العالمي في الســخرية، فيشــترون شــارات ماو الآن أيضاً. وتذكر

شـــريفة أن كثيراً من الصينيين كبار السن يســـتاؤون من أولئك الهواة، الذين ما يشترون أصناف ماو بغرض الاستثمار غالباً. وقد كان الجيل الأكبر من الصينيين قد أطلق المد الأحمر لأصناف ماو في الأسواق. وكانوا يرحِّبون بعائداتها.

ويستشـــف المرء، من تحويل الزعيم ماو إلى سلعة تجارية، طموح الصين إلى الابتعاد عن القرن العشرين. وليس ذلك تعويضاً عن الوقت الضائع فحسب، وإنما تفادياً للأســـئلة الصعبة والاتهامات المضادة التي قد تأتي. لقد حُوِّل التاريخ إلى ســلعة، فما إن تباع الســلعة حتى تساعد على تصفية الحسابات. إذا استطاعت الصين أن تصمد عشـــرين أو ثلاثين ســـنة أخـــرى دون أن يعود منتصف القرن العشـــرين ليخرج قطارها عن سكته، فتكون البلاد قد طوقت المُتَفَجِّر من التراث الوطني في الذاكرة البشـــرية القريبة. فهل يكون أي رد فعل أصح من ذلك أكثر؟ فالأحقـــاد التاريخية هي القوة الحاســـمة الأكبر فـــي التاريخ الحديث، وتحرص الصين كل الحرص على أن لا تحمل حقداً ضد نفســـها. لقد أصبح الســـوق هو الجواب الآن. الرئيس ماو يبيع الحساء.